تَأَمُّلَاتٌ فِي عَرُوضِ الوَرَقَةِ لِلْجَوْهَرِيِّ (ت ٣٩٣هـ)

بِقَلَمِ أَبِي رُوَيْمٍ أَحْمَدَ بْنِ مَحْمُودٍ الرَّوَّاشِيِّ

٢٥/ رجب/ ١٤٣٨

الحمد لله الذي كل نعمةٍ منه فضلٌ، وكل نقمة منه عدلٌ، وسلامٌ علىٰ عباده الذين اصطفىٰ، ثم أما بعدُ:

فقد بنىٰ الجوهريُّ رحمه الله (ت ٣٩٣هـ) رؤيته النقديةَ أو التيسيريةَ للنظرية الخليلية في العَرُوض علىٰ محاوِرَ ثلاثةٍ لا رابعَ لها:

المحور الأول: اشتقاق المركَّبِ من بسيطَيْنِ.

المحور الثاني: تَفْرِيق الوَتِدِ المجموع.

المحور الثالث: اتحاد الزحافِ والعِلَّةِ.

ولن نعبأ مطلقًا بكلامه علىٰ الأجزاء العَرُوضية؛ إذ فيه ما فيه مِمَّا لا يخفىٰ علىٰ ذي لُبٍّ، ولكننا سنضع بين يدَيْ حديثِنا أَمْرًا لا بُدَّ منه، وهو أن التسهيل في حقيقة أمره لا يكون البتة بحَذْفٍ من المضمون، ولا بِطَيٍّ لَهُ؛ إذ الحَذْفُ من المضمون إخلالٌ، والطَيُّ للمضمون خِدَاعٌ، وإنما يكون التسهيلُ للعلوم بتنظيمها وتهذيبها وإكمالِ صُورَتِها الناقصة أو المشوهةِ بسببٍ من سُوءِ تَناوُلِها وعَرْضِها.

فما الذي فَعَلَهُ الجوهري بالضَّبْطِ مع العَرُوض؟

الذي فعله في محوره الأول هو الطيُّ، فأنا إذا قلتُ: بحر كذا ما هو إلَّا من بحر كذا، فليس ما فعلتُه إلَّا طيًّا للمضمون، ويبقىٰ عندنا كيانانِ مستقلانِ عَقْلًا، وإن طُوِي أحدهما وخُبِّئَ في الآخر.

والذي فعله في محوره الثاني هو الطَّيُّ أيضًا؛ فأنا إذا قلتُ: بحر كذا ما هو إلَّا بحرُ كذا بتفريق وَتِدِ جُزْئه الفلانيِّ، فليس ما فعلتُه إلَّا طيًّا للمضمون أيضًا، ويبقىٰ عندنا كيانانِ مستقلان عَقْلًا، وإن زُعِمَ أَنَّ أحدَهُما هو الآخر، ولكن بعد إجراءٍ بسيط وقع فيه.

وأما الذي فعله في محوره الثالث فهو من الطَّوَامِّ لا شك في ذلك قِيدَ أُنْمُلَةٍ، إذ السماح للعلة بدخول الحشو مما لم يقُل به عَرُوضي إلَّا علىٰ استحياءٍ، وذلك لم يقع إلا في المتدارك مما

جعل بعضَهُم يحدو به إلىٰ أنه إيقاعٌ مستقل، وليس داخلًا في الدوائر الخليلية بحالٍ من الأحوال.

ومهما يكن من أمرٍ، فإنَّ الجوهريَّ حين أراد أن يُطَبِّقَ رُؤْيَتَهُ تلك بمحاورها الثلاثة التي استنبطناها من ذاتِ رؤيتِهِ، أَخْفَقَ إخفاقًا شَدِيدًا، وخلَّطَ تَخْلِيطًا مَعِيبًا، فلا هو بالذي أجاد في سَبْكَها وتَنْظِيرَيها، ولا هو بالذي تَرَكَها إلىٰ غَيْرِها مما يكون أَمْرُه عليه سَهْلًا.

ولن نسمح لأنفسنا بالدخول في هذا التخليط لنُناقِشَهُ نُقطةً نُقطةً؛ إذ إنَّ هذا مَشْغَلَةٌ عظيمةٌ دون فائدةٍ تُذْكَرُ، ولكننا سنكتفي بعَرْضِ محورَيْنِ من محاوره الثلاثةِ، وهما الأول والثاني بصورةٍ تنظيريةٍ وقياسيةٍ كاملةٍ، ثم لا نزيد علىٰ ذلك شيئًا؛ إذ بقليلٍ من التأمُّلِ والمقارنة بين طرحنا هذا الذي هو تقعيدٌ لمحوريه، وبين تطبيقه في كتابه لهذين المحورين، يُدْرِكُ كلُّ ذِي لُبٍّ ما رَمَيْنا إليه وما أردنا توضِيحَهُ مِنَ اضطرابِهِ وخَلْطِهِ الحابِلَ بالنابِلِ، ثُمَّ من فَسَادِ محاوره الثلاثةِ جميعًا حتىٰ لو كانت قد استقامت له أثناء التطبيق.

والآنَ حانَ الدخولُ في المقصود:

المِحْوَرُ الأَوَّلُ بِصُورَتِهِ الكَامِلَةِ
وَالَّتِي أَخْفَقَ الجَوْهَرِيُّ فِي تَطْبِيقِهَا
الأَقْيِسَةُ الِاشْتِقَاقِيَّةُ عِنْدَ الجَوْهَرِيِّ

كل بحر رُكِّبَ من جزأين مختلفين فهو من بحرين أُحاديين هكذا:

كل بيتٍ ركب من : فَعُولُنْ مَفَاعِيلُنْ، فهو من المتقارب والهزج.

الطويل، المستطيل المهمل.

كل بيتٍ ركب من : مَفَاعِيلُنْ فَاعِلَاتُنْ، فهو من الهزج والرمل.

[المضارع القياسي المهمل]، [المتضارع المهمل]، [المستضارع/ المضارع عند العَرُوضيين].

كل بيتٍ ركب من : مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ، فهو الرجز والمتدارك.

المديد الأول المهمل، البسيط، [السريع المطوي المكسوف عَرُوضًا الأصلمُ ضَرْبًا، وأما السريع في صورته القياسية فهو من الرجز بتفريق وتد الجزء الثالث].

كل بيتٍ ركب من : فَاعِلَاتُنْ مُسْتَفْعِلُنْ، فهو الرجز والرمل.

[المتئد المهمل]، [الخفيف]، [المجتث].

كل بيتٍ ركب من : فَاعِلَاتُنْ فَاعِلُنْ، فهو الرمل والمتدارك.

المديد الثاني، الممتد المهمل.

تنبيه مهم: ما بين المعقوفين مما يكتنفه المحوران الأول والثاني معًا.

قلتُ: إن مما يلزمه علىٰ قياس محوره هذا الذي لم يطرد عنده في التطبيق كمحور تفريق الوتد أَنْ يكونَ كلُّ تحويلٍ لزحافٍ وعِلَلٍ إذا هو أَدَّىٰ إلىٰ أجزاءٍ عَرُوضية مُعَيَّنَةٍ = مَأْخُوذًا من بسيطَيْنِ، فيكون مُخَلَّعُ البسيطِ -مَثَلًا- الذي هو: مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعُولُنْ، مأخوذًا من ثلاثة أبحرٍ بسيطةٍ هي: الرجز، المتقارب، المتدارك!!

ودليلنا علىٰ أن هذا يلزمه جَعْلُهُ السَّرِيعَ المَطْوِيَّ المَكْسُوفَ عَرُوضًا الأَصْلَمَ ضَرْبًا والذي تحويله: مُسْتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ، مأخوذًا من البسيط، بناءً علىٰ ما وقع في تطبيقه من خَلَلٍ

وخَطَلٍ، ولكننا لفَهْمِنا لمحاوَرِ رُؤْيَتِهِ نقول تَعْدِيلًا وتَصْحِيحًا: جَعَلَهُ مَأْخُوذًا من الرجز والمتدارك!!

ولن نعدِمَ –إِذَنْ– أن تأتِيَنا الزحافاتُ والعِلَلُ الخليليةُ بنماذِجَ نستطيع تخريجَها علىٰ أنها مأخوذةٌ من بُحُورٍ بسيطة؛ إذ التفريقُ بين المتماثلات في العلةِ مما لا يقول به العقلاءُ أَصْلًا!!

المِحْوَرُ الثَّانِي بِصُورَتِهِ الكَامِلَةِ
وَالَّتِي أَخْفَقَ الجَوْهَرِيُّ فِي تَطْبِيقِهَا
زِحَافُ تَفْرِيقِ الوَتِدِ المَجْمُوعِ

زِحَافُ تَفْرِيقِ الوَتِدِ عِنْدَ الجَوْهَرِيِّ				
هَزَجُ	(فَاعِ لَاتُنْ)	مَفَاعِيلُنْ	مَفَاعِيلُنْ	[المُضَارِعُ المهمل]
(مَافَعِيلُنْ)	مَفَاعِيلُنْ	مَفَاعِيلُنْ	(فَاعِ لَاتُنْ)	[المُتَضَارِعُ المهمل]
	مَفَاعِيلُنْ	(فَاعِ لَاتُنْ)	مَفَاعِيلُنْ	[المُسْتَضَارِعُ/ المضارع عند العروضيين]
الرَّجَزِ	مُسْتَفْعِلُنْ	مُسْتَفْعِلُنْ	(مَفْعُولَاتُ)	[السَّرِيعُ]
(مُسْتَفْعِنْلُ)	مُسْتَفْعِلُنْ	(مَفْعُولَاتُ)	مُسْتَفْعِلُنْ	المُنْسَرِحُ
	(مَفْعُولَاتُ)	مُسْتَفْعِلُنْ	مُسْتَفْعِلُنْ	المُقْتَضَبُ
رَمَلٌ	فَاعِلَاتُنْ	فَاعِلَاتُنْ	(مُسْتَفْعِ لُنْ)	[المُتَّئِدُ المهمل]
(فَاعَالَتُنْ)	فَاعِلَاتُنْ	(مُسْتَفْعِ لُنْ)	فَاعِلَاتُنْ	[الخَفِيفُ]
	(مُسْتَفْعِ لُنْ)	فَاعِلَاتُنْ	فَاعِلَاتُنْ	[المُجْتَثُّ]

تنبيه مهم: ما بين المعقوفين مما يكتنفه المحوران الأول والثاني معًا.

مُلاحظٌ أنَّ الأصلَ في مصفوفةِ الخليلِ في دائرةِ المضارع أَنْ يكونَ الجزءُ غيرُ المكرَّرِ فيها: بَدْءًا طَرَفًا طَرَفًا في الدورِ الأولِ، ثم طَرَفًا وَسَطًا وَسَطًا في الدورِ الثاني، ثم وَسَطًا بَدْءًا بَدْءًا في الدورِ الثالثِ.

وكنا قد صنعنا مصفوفةً خاصَّةً بنا يكون الجزءُ غيرُ المكرَّرِ فيها: بَدْءًا في الدور الأول، ثم طَرَفًا في الدور الثاني، ثم وَسَطًا في الدور الثالث، ولكنها لما لم تتفق مع الدوائر الخليلية من حيث الترتيب؛ ضربنا عنها صفحًا، واستبدلنا بها مصفوفةَ الخليل، وهي مُضَمَّنَةٌ في هذا الجَدْولِ أيضًا بقراءةِ المتن هكذا: مُضَارِعُ المُقْتَضَبِ مُجْتَثٌّ، وَمُتَضَارِعُ السَّرِيعِ مُتَّئِدٌ، وَمُسْتَضَارِعُ المُنْسَرِحِ خَفِيفٌ، بدلًا من قراءته كما هو في مصفوفة الخليل هكذا: مُضَارِعُ السَّرِيعِ مُتَّئِدٌ، وَمُتَضَارِعُ المُنْسَرِحِ خَفِيفٌ، وَمُسْتَضَارِعُ المُقْتَضَبِ مُجْتَثٌّ.

جَعَلَ الجوهريُّ رحمه الله أربابَ الأدوارِ من الهَزَجِ، وثوانيَ الأدوارِ من الرَّجَزِ، وثوالثَ الأدوارِ من الرَّمَلِ، وهذا عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، وكافٍ لنسفِ رُؤيَتِهِ الخاصَّةِ في العَرُوض الخَلِيليِّ!!

وأما المحور الثالث فقد كفانا المنطق السليم في وَضَعْ النظرياتِ العلميةِ الكلامَ عنه، ومن يعرف خصائص الزحاف والعلة يعرف بُعْدَ ما بينهما، وهو والحالةُ هذه من أصحاب المنطق السليم الذين لا يحتاجون في هذه الجزئية إلىٰ تبين أو توضيحٍ.

مَصْفُوفَةُ مَا يَكْتَنِفُهُ

المِحْوَرَانِ الأَوَّلُ وَالثَّانِي مَعًا

دائرة الطويل:

الطويل: من المتقارب والهزج.

المديد الأول المهمل: من المتدارك والرجز.

المديد الثاني: من الرمل والمتدارك.

المستطيل المهمل: من الهزج والمتقارب.

البسيط: من الرجز والمتدارك.

الممتد المهمل: من الرمل والمتدارك.

دائرة المضارع:

[المضارع القياسي المهمل]: من الرمل والهزج، أو من الهزج بتفريق وتد الجزء الأول.

[السريع القياسي]: من الرجز بتفريق وتد الجزء الثالث.

[السريع المطوي المكسوف عَرُوضًا الأصلمُ ضَرْبًا]: من الرجز والمتدارك.

[المتئد المهمل]: من الرمل والرجز، أو من الرمل بتفريق وتد الجزء الثالث.

[المتضارع المهمل]: من الهزج والرمل، أو من الهزج بتفريق وتد الجزء الثالث.

المنسرح: من الرجز بتفريق وتد الجزء الثاني.

[الخفيف]: من الرمل والرجز، أو من الرمل بتفريق وتد الجزء الثاني.

[المستضارع/ المضارع عند العرضيين]: من الهزج والرمل، أو من الهزج بتفريق وتد الجزء الثاني.

المقتضب: من الرجز بتفريق وتد الجزء الأول.

[المجتث]: من الرجز والرمل، أو من الرمل بتفريق وتد الجزء الأول.

لن يبقىٰ لنا إلَّا أن نقول: لقد أساءَ الجوهريُّ من حيث أراد الإحسانَ، فهو لم يُرِدْ إلَّا التبسيطَ والتسهيل، وكان من حسن التقدير أَنْ وصلتْنَا محاولَتُهُ تلك، ولم تَضِعْ مثلَ ما ضاع غيرُها من المحاولات الأُخرىٰ لغيرِهِ، ولكنها مع ذلك لم تَلْقَ إلَّا الصمتَ الرهيبَ من المُعْتَبَرِينَ في تناولِ هذا الفن، ولم يُشِرْ إليها أحدٌ منهم إلَّا شَذَرًا علىٰ سبيل التفكُّهِ لا التأصيل العلمي، وبَقِيت النظرية الخليلية شامخةً كالطَّوْدِ العظيمِ لا تهزها ريحٌ، ولا يزعزها زلزالٌ؛ إذ هي نظريةٌ جامعةٌ لكُلِّ ما هو مُمْكِنٌ من صُوَرِ ترتيبِ الفُصُولِ التي هي المقاطعُ الصوتية باعتماد الوتد فيها عنصرًا حاكمًا ومهيمنًا، وباعتماد الصورة التامة التي لا يتجاوزها شاعرٌ مبدعٌ من حيث طول المقاطع، فهي في ذلك كجمع الأربعةِ والعشرين صورةً لكلمة جعفرٍ حين تُقَلِّبُها لما لجعفرٍ من الصور الممكنة علىٰ سبيل الحصر، بحيث إذا جاءك أحدٌ ليَقُولَ لك: لجعفرٍ صورةٌ أُخرىٰ هي الخامسة والعشرون، علمتَ أنه إما جاهلٌ وإما كاذبٌ!!

تمت تأملاتنا علىٰ حسب فهمنا، فإن كان من توفيقٍ فمن الله وحده، وإن كان من زلل فمني والشيطانِ، وآخرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.